كتيب

قصة تروم المسيحية

من كتاب «قصة تروم المسيحية»



كريم عشماوي

قصة تروم المسيحية

من بدّل دين المسيح؟ ومن الذي صُلب؟

المسيح: من هو قبل أن يصبح موضوعًا للاهوت؟

لفهم قصة المسيحية، لا بد أولًا من العودة إلى النقطة التي سبقت ظهور المصطلحات اللاهوتية الكبرى، وقبل أن يدخل المسيح في الصياغات الفلسفية التي تشكلت بعد عصره بقرون. فالمسيح يسوع الناصري ظهر في بيئة يهودية، وعاش داخل مجتمع تحكمه شريعة موسى، وتحدث إلى قوم يعرفون أنبياء بني إسرائيل وكتبهم، ولذلك فإن وضعه التاريخي والديني الأول لا يمكن فصله عن إطار النبوة اليهودية. كان المسيح يهوديًا في انتمائه، ونبيًا في رسالته، ومصلحًا في خطابه، وداعيًا إلى التوبة والعودة إلى الله، ومواجهًا لما رآه من فساد ديني واجتماعي واستغلال باسم الدين.

ولم يقدم نفسه باعتباره مؤسسًا لديانة منفصلة عن الدين الذي سبقه، ولم يعلن أنه جاء ليهدم شريعة موسى أو ليقطع الصلة بين رسالته ورسالات الأنبياء السابقين، بل تنسب إليه الأناجيل قولًا واضحًا: «ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمّل». وهذه العبارة، ضمن سياقها، تضع المسيح داخل سلسلة الأنبياء، لا خارجها. فالمشروع الذي يظهر في صورته الأولى ليس تأسيس دين جديد من الصفر، وإنما إصلاح دين قائم وإعادة الروح إلى الشريعة بعد أن تحولت عند بعض رجال المدين إلى مجموعة من الممارسات الجامدة والتفسيرات التي رأى المسيح أنها ابتعدت عن مقصدها الأخلاقي.

كان خطابه منصبًا على التوبة، والرحمة، والعدل، وإخلاص العبادة لله، ونقد الرياء الديني، ومواجهة استغلال الضعفاء، ولذلك كانت صداماته مع بعض الكهنة والمرابين ورجال المدين جزءًا من رسالته الإصلاحية. ومن هنا تبدأ المفارقة الكبرى في قصة المسيحية: الصورة التي تقدمها المصادر عن المسيح داخل بيئته الأولى ليست مطابقة بصورة كاملة للصورة اللاهوتية التي تشكلت حوله لاحقًا. فبين المسيح الذي يظهر في بيئة يهودية ناطقًا بلغة النبوة، وبين المسيح الذي سيصبح في القرون التالية موضوعًا لتعريفات فلسفية حول الجوهر والأقنوم والطبيعة والإرادة، مسافة تاريخية وفكرية ضخمة.

وهنا يصبح السؤال الأول: كيف انتقل المسيح من إطار النبوة اليهودية إلى مركز منظومة لاهوتية يونانية رومانية؟ وهل حدث هذا الانتقال دفعة واحدة، أم كان نتيجة تراكم طويل من الترجمة والتفسير والصراع السياسي والديني؟

لغة المسيح: الآرامية قبل اليونانية

تزداد أهمية هذه المسألة عندما ننتقل إلى اللغة. فالمسيح ظهر في بيئة كانت الآرامية إحدى أهم لغاتها، ولا سيما الآرامية الغربية المستخدمة في فلسطين في القرن الأول. وكانت هذه البيئة اللغوية مرتبطة بالتقاليد السامية التي تشكل فيها العهد القديم واللغة الدينية اليهودية. ولذلك فإن الكلمات التي نُقلت لاحقًا إلى اليونانية لم تكن مجرد مفردات منفصلة عن سياقها، بل كانت تحمل داخلها شبكة واسعة من المعاني المرتبطة بالبيئة السامية وبطريقة استعمالها في الكتاب المقدس والمجتمع اليهودي.

والفرق هنا ليس مجرد فرق بين لغتين من الناحية النحوية، بل فرق بين بيئتين ثقافيتين وفكريتين. فاللغة السامية كانت تستخدم ألفاظًا مثل الأب والابن والروح والقدوس والمسيح والعبد والرب ضمن سياقات متعددة، كثير منها رمزي ووظيفي وعلاقي، بينما أصبحت هذه الكلمات عندما دخلت إلى البيئة اليونانية قابلة لأن تُقرأ داخل منظومة فلسفية تبحث عن طبيعة الأشياء وجوهرها وعلاقاتها الوجودية.

ومن هنا يمكن أن تتحول الكلمة الواحدة من معنى وظيفي أو مجازي إلى معنى ميتافيزيقي. فالقول إن شخصًا «ابن الله» في البيئة السامية لا يعني بالضرورة وجود نسب إلهي أو ولادة إلهية، لأن تعبير الابن كان مستخدمًا في الكتابات اليهودية لوصف القرب والطاعة والاصطفاء والانتساب إلى الله. أما عندما تدخل العبارة إلى عالم يوناني روماني اعتاد الحديث عن أبناء الآلهة والأنصاف الإلهية والتجسد الإلهي، فإن العبارة نفسها يمكن أن تحمل إيحاءات مختلفة تمامًا.

ولهذا تصبح الترجمة مرحلة أساسية في قصة التحول. فالكلمات لم تُنقل فقط من لغة إلى لغة، وإنما انتقلت معها مناخات فكرية مختلفة، ثم جاءت أجيال لاحقة لتقرأ النصوص اليونانية باعتبارها الأصل المباشر، وتبني فوقها تعريفات عقائدية لم تكن بالضرورة هي المعنى الذي كان حاضرًا في البيئة الأولى للمسيح.

روما: إمبراطورية لا تكتفي بمحاربة الأديان بل تستوعبها

لفهم التحول الذي طرأ على المسيحية، لا يكفي النظر إلى الخلافات الدينية وحدها؛ بل يجب فهم طبيعة العالم الروماني الذي انتشرت فيه المسيحية لاحقًا. كانت روما إمبراطورية ضخمة متعددة الشعوب واللغات والآلهة. ولم تكن سياستها الدينية تقوم دائمًا على إبادة كل دين يدخل أراضيها، بل كانت في حالات كثيرة تقوم على الاستيعاب والدمج وإعادة تفسير الآلهة والعادات المحلية داخل الإطار الإمبراطوري.

كانت روما قادرة على احتواء الآلهة الأجنبية وإدخالها في منظومتها الدينية، وعلى إعادة تفسيرها وفق الثقافة الرومانية. فكلما توسعت الإمبراطورية، توسعت معها دائرة المعبودات والرموز والأساطير التي يمكن استيعابها وإعادة ترتيبها. ولم يكن الدين منفصلًا عن السياسة، لأن وحدة الإمبراطورية كانت تحتاج إلى منظومة رمزية قادرة على استيعاب الشعوب المختلفة تحت سلطة واحدة.

ولهذا فإن ظهور حركة دينية ذات جذور يهودية أمام الإمبراطورية الرومانية كان أمرًا مختلفًا عن ظهور أسطورة محلية جديدة. فالمسيحية الأولى كانت تحمل معها تراثًا طويلًا من التوحيد والأنبياء والكتب المقدسة، وترتبط بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى، ولهذلك لم تكن مجرد عبادة جديدة يمكن وضعها ببساطة بجوار آلهة الإمبراطورية.

لكن المشكلة كانت في طبيعة الشريعة اليهودية وهويتها. فاليهودية لم تكن مجرد عقيدة نظرية، بل كانت منظومة دينية واجتماعية وتشريعية متكاملة تشمل الطعام والختان والعبادات والأعياد وأحكام الأسرة وغيرها. وكان إدخال هذه المنظومة كاملة إلى عالم الأمم أصعب بكثير من تقديم نسخة دينية يمكن أن تنتشر دون هذه القيود.

وهنا يظهر أحد أهم التحولات في تاريخ المسيحية: الاحتفاظ بالجذر الديني المرتبط بإبراهيم والأنبياء، مع تخفيف أو إزالة العناصر التي تجعل الانضمام إلى الدين الجديد مرتبطًا بالهوية اليهودية وشريعة موسى.

التثليث: هل كان مفهومًا غريبًا على العالم الروماني؟

عند دراسة التحول اللاهوتي اللاحق، تظهر مسألة التثليث. فالثالوث المسيحي بصورته العقائدية المعروفة لم يظهر مكتملًا في يوم واحد، وإنما مر بمراحل طويلة من الجدل والتعريف والصياغة. ومع ذلك، فإن فكرة وجود منظومات ثلاثية في الأديان القديمة لم تكن غريبة عن البيئة التي انتشرت فيها المسيحية.

كان في روما ما يعرف بالثالوث الكابيتولي: جوبيتر وجونو ومينرفا، كما عرفت الثقافات القديمة منظومات ثلاثية متعددة، ومن بينها المنظومة المصرية المرتبطة بإيزيس وأوزيريس وحورس. ولا يعني التشابه بين هذه النماذج أن العقيدة المسيحية نسخة مباشرة من أحدها، لكن وجود التصورات الثلاثية في العالم القديم يوضح أن فكرة ترتيب المقدس في صورة ثلاثية لم تكن غريبة على العقل الديني الذي استقبل المسيحية.

وكانت هناك أيضًا تصورات مختلفة عن الإله الأعلى والقوة الوسيطة والقوة الفاعلة، وهي أفكار وجدت لها صورًا متنوعة في الفلسفات والأديان القديمة. لذلك فإن انتقال المسيحية إلى العالم اليوناني الروماني أوجد بيئة فكرية يمكن فيها إعادة تفسير العلاقة بين الله والمسيح والروح ضمن منظومة فلسفية أكثر تعقيدًا.

وهنا لا يعود السؤال فقط: ماذا قال المسيح؟ وإنما أيضًا: كيف فهمه الذين جاؤوا بعده؟ وبأي أدوات فلسفية شرحوا علاقته بالله؟ وكيف تحولت الكلمات البسيطة مثل «الأب» و«الابن» و«الروح» إلى مفاهيم مثل «الجوهر» و«الأقنوم» والطبيعة والإرادة؟

الإمبراطور: ابن الإله على الأرض

كان العالم الروماني أيضًا معتادًا على فكرة ارتباط السلطة السياسية بالمقدس. فقد تجاوزت فكرة القداسة حدود الآلهة الموجودة في السماء، وأصبح الأباطرة أنفسهم جزءًا من منظومة دينية وسياسية تمنح الحاكم مكانة استثنائية. جرى تأليه يوليوس قيصر بعد موته، وحمل أغسطس لقب «Divi Filius»، أي «ابن الإله».

وهذا يعني أن فكرة «ابن الإله» لم تكن تُسمع في فراغ ثقافي. كانت هناك خلفية رومانية تجعل الألقاب الإلهية والسياسية والانتساب إلى المقدس جزءًا من اللغة العامة للسلطة.

كان الإمبراطور يمثل النظام الإمبراطوري، وتمنح له مكانة دينية تتجاوز مجرد كونه حاكمًا بشريًا. ولهذلك فإن انتقال فكرة المسيح من لقب رسالي أو ديني إلى تصور كوني عن «ابن الله» حدث داخل عالم يعرف أصلًا مفردات الابن الإلهي والوسيط الإلهي والسلطة المقدسة.

ومن هنا تصبح عملية التأليه، في سياقها التاريخي، مرتبطة أيضًا بتحولات ثقافية وسياسية وليست مجرد مسألة لغوية منفصلة.

المسيحية: الفرصة التي وجدت فيها روما دينًا عالميًا

عندما بدأت حركة المسيح في الانتشار، كانت أمام الإمبراطورية الرومانية حركة دينية مختلفة. فهي ليست مجرد عبادة وثنية جديدة، بل حركة ذات جذور عميقة في تراث بني إسرائيل، مرتبطة بالأنبياء وبالعهد القديم وبإله إبراهيم.

وهنا كانت القوة الحقيقية للمسيحية: إنها تستطيع أن تقدم نفسها باعتبارها استمرارًا لقصة دينية أقدم، وليس دينًا بلا تاريخ. لكن هذه القوة نفسها كانت تحمل معها عبئًا؛ فالالتزام بالشريعة اليهودية كان يجعل الانتشار بين الأمم أكثر صعوبة.

ومن هنا ظهر حل تاريخي بالغ الأهمية: الاحتفاظ بالعهد القديم بوصفه أصلًا مقدسًا، مع إعادة تفسير العلاقة بالشريعة.

وهنا يأتي بولس.

بولس: التحول الذي غيّر مسار المسيحية

بولس شخصية محورية في هذه القصة. فقد كان يهوديًا، وعاش في عالم متعدد الثقافات واللغات، وكان مرتبطًا بمدينة طرسوس ذات الثقافة الهلنستية، وتظهر رسائله في اليونانية. كما كان في بدايته معاديًا لأتباع المسيح، ثم أصبح بعد ذلك من أبرز الدعاة إلى المسيحية بين الأمم.

وهنا نشأ اختلاف عميق بين اتجاهين داخل المسيحية الأولى. اتجاه ارتبط بأورشليم وتلاميذ المسيح ويعقوب أخيه، وكان أكثر تمسكًا بالهوية اليهودية والشريعة، واتجاه آخر توسع بين الأمم بقيادة بولس وتلاميذه.

المسيحية الأولى لم تكن كتلة واحدة متطابقة. كانت هناك جماعات رأت المسيح نبيًا ومسيحًا مرسلًا من الله، وتمسكت بجذورها اليهودية وشريعة موسى، وظهرت لاحقًا أسماء مثل الناصريين والإبيونيين وجماعات مرتبطة بيعقوب أخي الرب.

وكان هؤلاء أقرب إلى الصورة التي تقدمها الرواية عن المسيحية الأولى: مسيحيون موحدون، يؤمنون بالمسيح، لكنهم لا يجعلونه إلهًا متجسدًا، ولا يرون أن مجيئه ألغى شريعة موسى.

ومع اتساع الخلاف، أصبح الصراع ليس فقط حول هوية المسيح، بل حول سؤال أكثر خطورة: ما الذي يجب أن يلتزم به أتباعه؟

هل يجب الختان؟

هل يجب الالتزام بالطعام المحرم؟

هل يجب اتباع شريعة موسى؟

هل المسيح جاء لتجديد الشريعة أم لإلغائها؟

هل الخلاص مرتبط بالأعمال والطاعة، أم بالإيمان بالمسيح وموته؟

هذه الأسئلة كانت في قلب الصراع.

دين بلا شريعة يهودية

قدم الاتجاه البولسي نموذجًا أكثر قدرة على الانتشار بين الأمم. فالمعتنق الجديد لم يعد مطالبًا بأن يصبح يهوديًا بكل معنى الكلمة. لم يعد الختان شرطًا عامًا لمدخول الدين، ولم تعد أحكام الطعام اليهودية هي محور الهوية الدينية، وأصبحت العلاقة بالمسيح والإيمان به هي مركز الخلاص.

وبذلك ظهرت صورة لدين يمكن أن ينتشر بسهولة أكبر بين الشعوب غير اليهودية: جذره في كتب الأنبياء، لكن شريعته لم تعد هي شريعة اليهود بكل تفاصيلها، ومركزه المسيح، والخلاص فيه مرتبط بالإيمان والفداء.

وهكذا أصبحت المسيحية قابلة للتوسع خارج فلسطين بدرجة أكبر بكثير.

لكن هذه النقلة كانت تحمل معها نتيجة أخرى: كلما ابتعدت المسيحية عن أورشليم والبيئة اليهودية، زاد اعتمادها على اللغة اليونانية وعلى الثقافة الهلنستية، وبدأت المسافة بين المسيحية الأولى والمسيحية التي ستصبح لاحقًا دينًا إمبراطوريًا تتسع.

الشريعة والفداء

في هذه المرحلة ظهر مفهوم الفداء بوصفه عنصرًا مركزيًا في الاتجاه البولسي. المسيح أصبح مرتبطًا بفكرة أنه مات من أجل البشر، وأن موته كان وسيلة للخلاص، وأن الإنسان يستطيع أن ينال الخلاص من خلال الإيمان.

وفي المقابل، أصبحت الشريعة تُعرض باعتبارها شيئًا لم يعد شرطًا للخلاص بالطريقة التي كان عليها الأمر في اليهودية.

وهكذا حدث تغيير جوهري: الدين الذي ظهر داخل الشريعة اليهودية أصبح دينًا يمكن أن ينفصل عن تلك الشريعة مع الاحتفاظ بالعهد القديم باعتباره كتابًا مقدسًا.

وهذا الحل كان بالغ الأهمية من الناحية التاريخية؛ لأنه سمح للمسيحية بأن تحتفظ بجذورها السماوية وبقصة الأنبياء، دون أن تحمل معها كل متطلبات الهوية اليهودية.

من اليهودية إلى الرومنة

ومع انتقال المسيحية إلى العالم الروماني، بدأت تظهر عملية أخرى لا تقل أهمية عن تغيير الشريعة، وهي انتقال الشكل الديني نفسه.

فدخلت تدريجيًا أنماط احتفالية وطقسية جديدة، وارتبطت بعض الأعياد المسيحية لاحقًا بالتقويم والثقافة الرومانية، وظهرت الطقوس المنظمة والملابس الكهنوتية والشموع، ثم ظهرت في مراحل لاحقة صور وتماثيل ومظاهر دينية لم تكن جزءًا من الصورة الأولى لحركة المسيح.

ومن أبرز الأمثلة ارتباط الاحتفال بميلاد المسيح بتاريخ 25 ديسمبر في التقليد الغربي، وهو تاريخ ارتبط في العالم الروماني باحتفالات شتوية وشمسية سابقة. ولا يعني ذلك أن كل عنصر مسيحي له أصل وثني مباشر، لكن دخول المسيحية في الثقافة الرومانية جعل عملية التكيّف والاستيعاب الثقافي جزءًا من تاريخها.

وبذلك بدأت تتكون صورة مركبة:

جذر يهودي، ولغة يونانية، وثقافة رومانية، واسم مسيحي.

وهذه التركيبة ستصبح لاحقًا أساسًا للمسيحية الأوروبية.

لماذا لم تختفِ اليهودية من المشهد؟

قد يبدو غريبًا أن المسيحية البولسية خففت ارتباطها بالشريعة اليهودية، ومع ذلك أبقت العهد القديم في مركز الكتاب المقدس ، لكن هذا الأمر كان ضروريًا للحفاظ على شرعية الدين الجديد.

فلو قطعت المسيحية صلتها باليهودية تمامًا، لظهرت باعتبارها دينًا جديدًا بلا سلسلة أنبياء ولا وحي سابق. أما إبقاء العهد القديم، مع إعادة تفسيره باعتباره تمهيدًا للمسيح، فقد أعطى المسيحية الجديدة جذورًا دينية عميقة.

وهكذا لم تختفِ اليهودية من البناء المسيحي، وإنما تغير موقعها داخله.

أصبحت الجذور، بينما أصبح المسيح هو المركز الجديد.

وبقيت قصص إبراهيم وموسى وداود والأنبياء جزءًا من الكتاب المقدس، ولكنها أصبحت تُقرأ في ضوء المسيح والفداء.

ومن هنا أصبح العهد القديم شاهدًا على المسيحية الجديدة بدل أن يكون شريعة ملزمة بكل تفاصيلها لأتباعها من الأمم.

المسيحية بعد التحول: لماذا أصبحت مناسبة للإمبراطورية؟

كلما أصبحت المسيحية أقل ارتباطًا بالهوية اليهودية وأكثر قدرة على الانتشار بين الشعوب، أصبحت قابلة لأن تتحول إلى دين عالمي.

دين لا يشترط على الداخل الجديد أن يصبح يهوديًا.

دين لا يفرض عليه الختان.

دين لا يلزمه بكل أحكام الطعام اليهودية.

دين يربط الخلاص بالإيمان بالمسيح.

دين يتحدث عن مملكة سماوية وخلاص بعد الموت.

دين يمكن أن يعيش أتباعه تحت أنظمة سياسية مختلفة.

وفي رسائل بولس نجد أيضًا دعوة إلى الخضوع للسلطات، ومن أشهر النصوص:

«لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة».

وهكذا أصبح هناك نموذج ديني يمكن أن ينتشر دون أن يطالب أتباعه بإقامة دولة دينية يهودية أو ثورة سياسية شاملة.

لم يعد الدين في صورته الجديدة مشروعًا سياسيًا لإسقاط الإمبراطورية.

بل أصبح قادرًا على التعايش معها.

وهذا ما جعل المسيحية لاحقًا قابلة للدخول في قلب النظام الإمبراطوري نفسه.

وهنا تبدأ المرحلة الأخطر: إعادة تفسير كلمات المسيح

لم يكن المطلوب بالضرورة حذف كل كلمات المسيح.

فالحذف الكامل كان سيكشف التغيير.

الأكثر فاعلية هو الاحتفاظ بالكلمات وإعادة تفسيرها.

تبقى كلمة:

الأب.

وتبقى كلمة:

الابن.

وتبقى كلمة:

الروح.

وتبقى كلمة:

الواحد.

وتبقى كلمة: الخلاص.

لكن تتغير المعاني التي تُبنى حولها.

وهنا تصبح الترجمة والتفسير جزءًا من صناعة العقيدة.

فالكلمة عندما تنتقل من سياق إلى سياق لا تبقى دائمًا محايدة. قد تحمل معها معنى جديدًا، ثم يأتي اللاهوت ليبني فوق هذا المعنى نظامًا كاملًا.

ومن هنا يمكن فهم التحول من لغة النبوة إلى لغة الفلسفة.

«أبي»: أبوة الرعاية أم أبوة الوجود؟

كان المسيح يقول عن الله:

«أبي».

والكلمة الآرامية المرتبطة بهذا التعبير هي «أبا» Abba.

وفي السياق السامي لا تعني الأبوة بالضرورة الإنجاب البيولوجي، بل يمكن أن تستخدم للدلالة على الرعاية والقرب والولاية والمكانة.

وهذا المعنى موجود في العهد القديم نفسه.

فقد جاء عن إسرائيل:

«إسرائيل ابني البكر».

وجاء:**«أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا».**

ولم يفهم اليهود من هذه العبارات أن الله أنجب إسرائيل أو داود ولادة بيولوجية.

إذن «الأب» و«الابن» كانا قادرين على العمل داخل لغة دينية مجازية وعلاقية.

لكن عندما دخلت هذه الكلمات إلى العالم اليوناني، ثم بدأت تُقرأ ضمن أسئلة الفلسفة حول الطبيعة والجوهر، تغيرت مساحة الاحتمالات.

وأصبح السؤال: هل الابن ابن بمعنى رمزي؟ أم ابن بمعنى وجودي؟

هل هو مختار من الله؟ أم من جوهر الله؟

هل العلاقة علاقة طاعة ورسالة؟ أم علاقة أزلية داخل الذات الإلهية؟

ومن هنا بدأت رحلة طويلة من التأويل انتهت إلى المصطلحات التي ستعرف لاحقًا بالأقنوم والجوهر والطبيعة.

«ابن الله»: لقب أم نسب إلهي؟

تظهر المشكلة نفسها في تعبير «ابن الله».

فاللغة السامية تستخدم كلمة «ابن» استخدامًا واسعًا.

نقول:

ابن الطريق.

ابن الساعة.

ابن الهلاك.

أبناء الأنبياء.

وأكثر من ذلك، تنسب الأناجيل إلى المسيح قوله:

«طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون».

فإذا كان لقب «ابن الله» يعني الألوهية الحرفية، فماذا يعني وصف صانعي السلام بأنهم أبناء الله؟

هنا تظهر الوظيفة المجازية والروحية للفظ.

لكن عندما دخلت العبارة إلى عالم روماني يوناني يعرف أساطير أبناء الآلهة وأنصاف الآلهة، أصبحت قابلة لتفسير مختلف.

ومن هنا انتقلت العبارة من:

الانتساب الرسالي والقرب من الله

إلى:**النسب الإلهي والوجود السماوي.**

وهذه النقلة واحدة من أهم مفاتيح قصة التحول.

«أنا والآب واحد»: وحدة الرسالة أم وحدة الذات؟

من أكثر النصوص استخدامًا في إثبات ألوهية المسيح قوله:

«أنا والآب واحد».

لكن العبارة تحتاج إلى قراءتها ضمن سياقها الكامل.

فإذا كان «واحد» يعني بالضرورة وحدة الجوهر والذات، فماذا نفعل مع قول المسيح عن تلاميذه:

«ليكونوا واحدًا كما نحن واحد»؟

هل أصبح التلاميذ بذلك إلهًا واحدًا؟

المعنى الآخر الممكن هو وحدة الهدف والإرادة والرسالة.

المسيح واحد مع الله في طاعته وإرادته ومهمته، كما يطلب من أتباعه أن يكونوا واحدًا في الإيمان والطريق.

وهنا تظهر المشكلة نفسها التي ظهرت في كلمة «الابن»:

هل نقرأ العبارة في سياقها السامي والنبوي؟

أم نقرأها داخل منظومة فلسفية تبحث عن وحدة الجوهر؟

الروح: قوة الله أم أقنوم مستقل؟

تتكرر المسألة مع «الروح».

في اللغات السامية ترتبط كلمة الروح بالنَفَس والحياة والقوة والتأييد والوحي.

فـ«روح الله» يمكن أن تدل على فعل الله وتأثيره ووحيه وقوته.

لكن عندما تنتقل الكلمة إلى منظومة فلسفية يونانية، يمكن أن تبدأ في اكتساب صورة أكثر استقلالًا، ثم يصبح السؤال عن طبيعة الروح وعلاقته بالله والابن.

وبمرور الزمن، يتحول الروح من مفهوم مرتبط بفعل الله وتأثيره إلى أحد أطراف الصياغة الثلاثية.

وهكذا تكتمل تدريجيًا صورة: **الآب، والابن، والروح.**

ثم يأتي اللاهوت ليبحث عن كيفية كون الثلاثة واحدًا.

وهذه الأسئلة لم تكن مجرد شرح لكلام المسيح، بل أصبحت علمًا كاملًا له مصطلحاته وتعريفاته وصراعاته ومجامعه.

الشريعة: كيف خرجت من الدين؟

إذا كان المسيح يقول:

«ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمّل»

فإن إبعاد الشريعة يحتاج إلى تفسير.

وهنا كان مفهوم الفداء أحد أهم الأدوات.

فبدل أن تكون العلاقة مع الله قائمة على الإيمان والطاعة والعمل بالشريعة، أصبحت العقيدة الجديدة تربط الخلاص بالإيمان بالمسيح وبموته.

وبذلك أمكن إلغاء الكثير من الأحكام التي كانت تميز اليهودية دون إعلان أن الله الذي أنزل شريعة موسى قد أخطأ.

فالشريعة بقيت مقدسة في أصلها، لكن جرى القول إن المسيح حقق غايتها، وإن أتباعه لم يعودوا ملزمين بكل أحكامها.

وهذا هو الحل الذي سمح للمسيحية بالاحتفاظ بالعهد القديم دون الاحتفاظ بالهوية التشريعية اليهودية كاملة.

الطعام: ماذا قال المسيح؟

من النصوص التي أصبحت محورًا في مسألة الطعام قول المسيح:

«ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم».

والسياق يتحدث عن أشياء مثل:

الكلام، والشر، والكذب،

والزنا، وشهادة الزور،

والأفكار الخارجة من القلب.

ولهذا يمكن قراءة العبارة بوصفها تركيزًا على النجاسة الأخلاقية الداخلية.

لا مجرد إلغاء قائمة الأطعمة المحرمة.

ويأتي كذلك القول: **«ما يدخل الجوف يمضي إلى المخرج».**

وهو تعبير مرتبط بوصف ما يحدث للطعام داخل الجسد.

لكن هل كان المقصود من ذلك إلغاء كل الأحكام الغذائية التي جاءت في الشريعة؟

هنا وقع الاختلاف.

وفي الاتجاه الذي قاده بولس، أصبحت القيود الغذائية أقل حضورًا بكثير، وهو ما جعل الدين أكثر قابلية للانتشار بين الرومان والأمم.

الخمر: بين النبيذ والسكر

كانت الخمر معروفة في فلسطين القديمة، كما كان النبيذ معروفًا في المجتمعات الرومانية واليونانية. لكن النصوص الدينية اليهودية لم تكن تجعل السكر فضيلة، بل كانت تحذر منه.

ومن ذلك قول إشعياء: **«ويل للذين يصعدون باكرًا ليتبعوا المسكر».**

ولهذا يجب التفريق بين استعمال النبيذ وبين الدعوة إلى السكر.

ومع انتقال المسيحية إلى العالم الروماني، أصبح النبيذ جزءًا من الطقس المسيحي المركزي في الإفخارستيا، وأصبح الخمر عنصرًا دينيًا في العبادة المسيحية.

وهكذا دخل الشراب الذي كان موجودًا أصلًا في البيئة اليهودية والرومانية داخل طقس جديد يحمل معنى دينيًا مختلفًا.

الطلاق والمرأة: المسيح في مواجهة إساءة استعمال الشريعة

كان موقف المسيح من الطلاق شديدًا، لكنه لا يظهر بوصفه إلغاءً للشريعة بقدر ما يظهر بوصفه مواجهة لاستغلالها.

وتنسب إليه العبارة:

«من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم موسى».

أي أن المشكلة ليست في أن موسى وضع شريعة فاسدة، بل في قسوة البشر وسوء استعمالهم للرخصة.

وكان المجتمع الذي ظهر فيه المسيح مجتمعًا ذكوريًا شديد التعقيد، وكانت المرأة كثيرًا ما تقع في موقع أضعف من الرجل في مسائل الطلاق والحقوق.

ولهذا كان تشديد المسيح على مسؤولية الرجل موقفًا إصلاحيًا داخل المجتمع.

وكذلك في قصة المرأة المتهمة بالزنا، لم يحوّل المسيح الزنا إلى حلال، وإنما واجه النفاق والانتقائية في تطبيق العقوبة، خصوصًا عندما تتحول الشريعة إلى وسيلة لإدانة شخص مع تجاهل فساد الآخرين.

وهكذا يظهر المسيح هنا مصلحًا دينيًا وأخلاقيًا، لا شخصًا جاء لإلغاء كل أحكام الدين.

الهيكل والمرابون: غضب نبي على الفساد الديني

ومن أقوى مشاهد الأناجيل دخول المسيح إلى الهيكل وقلبه موائد الصيارفة وطرده للمتاجرين.

هذه الصورة لا يمكن فصلها عن موقفه من تحويل العبادة إلى تجارة.

كان الهيكل مكانًا مقدسًا، وكان المسيح يرى أن تحويله إلى مركز للربح والمتاجرة إساءة إلى الدين.

ولهذا جاء غضبه، وهذا المشهد يقدم المسيح باعتباره نبيًا غيورًا على عبادة الله، يواجه المؤسسة الدينية عندما يراها تنحرف عن وظيفتها ،فالصورة التي تظهر هنا هي صورة مصلح ديني يصطدم برجال المدين والمرابين، وليس صورة حاكم سياسي أو مؤسس دولة جديدة.

ماذا بقي بعد كل هذا التحويل؟

عندما ننظر إلى الصورة كاملة، نجد أن الكلمات الأساسية بقيت:

الأب.

الابن.

الروح.

الواحد.

الخلاص.

الشريعة.

لكن المشكلة ليست دائمًا في وجود الكلمات، وإنما في المعاني التي أصبحت تحملها.

فقد تنتقل الكلمة من لغة إلى لغة، ثم من ثقافة إلى ثقافة، ثم من جيل إلى جيل، حتى تصبح لها دلالة جديدة.

وهكذا يمكن أن يحدث التحريف دون أن يكون هناك حذف كامل للنص.

يكفي أن يعاد تفسيره.

يكفي أن تتغير البيئة التي يُقرأ فيها.

يكفي أن تصبح الكلمة السامية جزءًا من منظومة فلسفية يونانية.

ثم تأتي السياسة لتمنح تفسيرًا معينًا قوة وانتشارًا.

ومن هنا نصل إلى السؤال الأخطر في القصة كلها:

إذا كان معنى كلمات المسيح قد خضع لهذا التحول، فماذا عن نهايته؟

هل صُلب المسيح فعلًا؟

أم شُبّه لهم؟

ومن الذي كان على الصليب؟

ولماذا كان المسيح يدعو الله في الليلة الأخيرة أن يصرف عنه الكأس؟

ولماذا احتاج الذين جاؤوا للقبض عليه إلى قبلة يهوذا؟

ولماذا غاب معظم التلاميذ عن لحظات القبض والمحاكمة والصلب؟

ولماذا قال المصلوب:

«إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»

ولماذا لم تتعرف مريم على المسيح عندما رأته؟

وهل كان القبر قبر المسيح أصلًا؟

هنا تنتهي المرحلة الأولى من القصة، وتبدأ أخطر حلقاتها:

الأيام الأخيرة للمسيح، بين المؤامرة والقبض والشَّبه والنجاة والرفع.

والآن نبدأ مواجهة السؤال الذي بُنيت عليه المسيحية اللاحقة كلها:

من الذي صُلب؟

بعد أن أصبحت حركة المسيح أمام صراع ديني وسياسي متشابك، دخلت الأحداث مرحلة مختلفة تمامًا. لم يعد الأمر متعلقًا بالخلاف حول الشريعة أو طريقة فهم رسالته، بل أصبح متعلقًا بمصيره نفسه. كانت السلطات الدينية ترى في خطابه تحديًا لمكانتها، وكان المسيح يعرف أن الخطر يقترب. ومن هنا تبدأ الساعات الأخيرة، وهي الساعات التي ستصبح لاحقًا أساس العقيدة المسيحية المتعلقة بالصلب والفداء والخلاص.

الليلة الأخيرة: المسيح يطلب النجاة

في الساعات التي سبقت القبض عليه، لا يظهر المسيح في الرواية الإنجيلية كشخص يدخل إلى الموت دون تردد، وإنما يظهر كرجل يعلم أن خطراً حقيقياً يقترب منه، فيتوجه إلى الله بالصلاة والتضرع. كان في البستان، وابتعد عن الناس، وركع وسجد ودعا الله، ثم قال: «يا أبتاه، إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس»، ثم أتبع ذلك بقوله: «ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك».

هذه الكلمات هي من أكثر المشاهد دلالة في الرواية كلها؛ فالمسيح هنا يتوجه إلى شخص آخر يطلب منه النجاة، ويقر بإرادة ليست إرادته، ويطلب صرف الكأس عنه. وتزداد الصورة وضوحًا عندما تذكر الرواية أن عرقه كان كقطرات دم. نحن أمام رجل يخشى ما سيأتي، ويطلب من الله أن يصرف عنه المحنة، ثم يسلّم أمره إلى إرادة الله.

ومن هنا يبرز السؤال: إذا كان الصلب هو الغاية التي جاء المسيح من أجلها، وإذا كان موته هو الخطة الإلهية التي لا بد منها لخلاص البشر، فلماذا كان يدعو الله أن تعبر عنه الكأس؟ ولماذا كان يطلب النجاة؟ ولماذا كانت حالته النفسية والجسدية في تلك اللحظة أقرب إلى إنسان يريد أن ينجو من الموت منها إلى شخص يرى الموت هدفًا مقصودًا؟

هذه الأسئلة لا تحسم وحدها ما حدث، لكنها تجعل قراءة الساعات الأخيرة أكثر تعقيدًا من الصورة اللاهوتية التي ستظهر لاحقًا.

قبلة يهوذا: علامة على شخص معروف

ثم يظهر يهوذا ، كان المسيح شخصية معروفة في أورشليم. لم يكن رجلًا مجهولًا يمكن أن يختلط بغيره بسهولة. كان يدخل الهيكل، ويعلّم أمام الناس، ويتحدث علنًا، وله تلاميذ وأتباع معروفون. ومع ذلك، تروي الأناجيل أن يهوذا جاء مع المجموعة التي تبحث عنه، وأن العلامة المتفق عليها لمعرفة الشخص المطلوب كانت قبلة.

تبدو القبلة في ظاهرها مجرد وسيلة للتعريف، لكن وجودها يثير سؤالًا مهمًا: لماذا يحتاج شخص معروف إلى علامة سرية لتحديده؟

هل كان هناك تشابه أو التباس في المكان؟ هل كان المطلوب القبض على شخص محدد وسط مجموعة من الأشخاص؟ هل كانت الخطة تعتمد على تمييز شخص بعينه في ظروف لا تسمح بالتأكد منه؟

ثم يأتي سؤال آخر أكثر حساسية: كيف عرف التلاميذ أصلًا باتفاق يهوذا؟ وهل كانت القبلة مجرد وسيلة تعريف، أم كانت جزءًا من ترتيب أوسع لا تظهر كل تفاصيله في الروايات؟

يصبح الأمر أكثر إثارة عندما نتذكر أن المسيح نجا في مناسبات سابقة من محاولات القبض عليه أو قتله، وكان ينسحب من بينهم عندما يشتد الخطر، بل تنسب إليه الأناجيل في أكثر من موضع عبارة «لم تأتِ ساعتي بعد». فإذا كان قد استطاع الإفلات في السابق، فلماذا أصبحت هذه الليلة مختلفة؟

هنا يظهر مفهوم «الشَّبه» بوصفه احتمالًا يفسر جانبًا من الغموض: أن الذين جاءوا بحثًا عن المسيح ظنوا أنهم أمسكوا به، بينما كان الشخص الذي وقع في أيديهم شخصًا آخر.

التلاميذ يهربون

عندما وقع القبض، لم يتحول المشهد إلى مقاومة جماعية من أتباع المسيح. بل تذكر الروايات أن التلاميذ تفرقوا وهربوا ،وهذه النقطة تظل ذات أهمية؛ لأن التلاميذ كانوا أقرب الناس إلى المسيح، وكانوا يرون أنفسهم أتباعًا له. ومع ذلك، لم يقفوا إلى جانبه في لحظة القبض، ولم يظهروا باعتبارهم شهودًا مباشرين لكل مراحل المحاكمة.

حتى بطرس، أحد أبرز تلاميذه، أنكر معرفته بالمسيح.

ومن هنا تظهر مشكلة تاريخية في رواية الصلب: الحدث الذي سيصبح بعد ذلك مركز العقيدة المسيحية لم يكن جميع أتباع المسيح شهودًا مباشرين عليه. فالأحداث جرت في أجواء من الخوف والهروب والاختفاء، ثم جاءت روايات لاحقة تنقل ما حدث.

وهذا يفتح سؤالًا مهمًا: إذا كان التلاميذ أنفسهم لم يكونوا حاضرين في كل مراحل القبض والمحاكمة والصلب، فمن أين جاءت التفاصيل الكاملة التي أصبحت لاحقًا أساسًا لعقيدة الخلاص؟

الصمت أمام المحاكمة

تزداد غرابة الأحداث عندما يصل الأمر إلى المحاكمة.

المسيح الذي عرف عنه الجدال مع الفريسيين والكهنة، والذي كان قادرًا على الرد على خصومه أمام الجماهير، يظهر فجأة في موقف مختلف. أمام الكهنة وأمام السلطة الرومانية، يصبح صامتًا في مواضع مهمة.

كان يستطيع الكلام، لكنه لا يتحدث بالطريقة التي عُرف بها سابقًا. كان يستطيع أن يجادل، لكنه لا يقدم دفاعًا مفصلًا. كان يستطيع أن يشرح هويته ورسالته، لكنه يلتزم الصمت.

وهنا يصبح الصمت نفسه جزءًا من اللغز.

فهل كان هذا صمت رجل يعلم أن موته جزء من مهمته؟ أم صمت شخص آخر وجد نفسه في موقف لا يستطيع الخروج منه؟ وهل كان الموجود أمام السلطات هو المسيح أصلًا؟

وفق قراءة الشَّبه، يصبح الصمت مفهومًا بصورة مختلفة: الشخص الذي أُخذ لم يكن المسيح، ولذلك لم يستطع أن يقدم نفسه للسلطات باعتباره صاحب الرسالة.

من كان على الصليب؟

هنا نصل إلى قلب المسألة.

القرآن يضع حدًا واضحًا للرواية التي تقول إن اليهود والرومان قتلوا المسيح وصلبوه، فيقول: «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم».

وبذلك يصبح السؤال ليس: كيف مات المسيح على الصليب؟ وإنما: من الذي ظن الناس أنه المسيح؟

لقد أقسم الله عز وجل قبل إنزال المائدة على الحواريين بأنه سيعذب من يكفر بعدها عذابا شديدا

العبارة «شُبّه لهم» فتحت منذ وقت مبكر بابًا واسعًا من التفسير حول حقيقة الشخص الذي انتهى إلى الصليب. وفي القراءة التي يقوم عليها هذا البحث، كان هناك شخص آخر وقع عليه الشبه، وكان المقصود بالمسيح هو الذي نجا.

ومن هنا تأتي شخصية يهوذا في مركز الرواية ،فهو الشخص الذي جاء ليُسلّم المسيح، وهو الشخص الذي أعطى العلامة التي حددت المطلوب، وهو الشخص الذي ارتبط اسمه بالخيانة، ثم تنتهي حياته في الروايات بطريقة مأساوية ومختلفة في تفاصيلها ، وهنا يظهر احتمال أن يكون الخائن نفسه قد وقع عليه ما كان يريد أن يوقعه بغيره.

يهوذا والشبيه

إذا كان يهوذا قد جاء ليحدد المسيح للذين يريدون القبض عليه، فإن الشبه يصبح أكثر وضوحًا داخل هذه القراءة. الشخص الذي أشار إليه يهوذا هو المسيح، لكن الذي أصبح في متناول السلطات هو شخص آخر ، ثم تُبنى الرواية على أن الشبيه أخذ مكان المسيح.

وبذلك يصبح المشهد كله قائمًا على خطأ في الهوية: الذين جاءوا للقبض على المسيح اعتقدوا أنهم وجدوه، والذين رأوا الصليب اعتقدوا أنهم رأوا المسيح، ومن ثم بُنيت الرواية اللاحقة على هذا الاعتقاد.

أما المسيح، فكان قد نجا. وهذه الفكرة تجعل جملة «شُبّه لهم» مركز القصة كلها، لأن الصليب لم يعد دليلًا على موت المسيح، بل دليلًا على نجاح عملية الاشتباه.

الصرخة على الصليب

من أكثر المشاهد حضورًا في الروايات الإنجيلية الصرخة المنسوبة إلى المصلوب: «إيلي إيلي لما شبقتني»، أي: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»

هذه الكلمات ظلت موضع تفسيرات متعددة في المسيحية، وربطها البعض بالمزمور الثاني والعشرين، بينما رأى آخرون فيها تعبيرًا عن الألم الشديد.

لكن داخل القراءة التي تبحث في حقيقة الشخص الموجود على الصليب، تصبح الصرخة ذات دلالة مختلفة.

فالمصلوب يصرخ إلى الله.

يناديه: **إلهي.**

ويقول: **لماذا تركتني؟**

إنها لغة إنسان يتوجه إلى الله في لحظة ألم وفزع.

وإذا كان المصلوب هو المسيح، فإن السؤال يصبح: كيف يجتمع ذلك مع التصور القائل إن المسيح جاء إلى الصليب بوصفه غاية محددة، وإن موته كان فداءً مقصودًا؟

أما إذا كان المصلوب هو الشبيه، فإن الصرخة تصبح صرخة شخص وجد نفسه في موقف لم يتوقعه، ويواجه موتًا حقيقيًا وهو يعلم أن المصير الذي وقع عليه لم يكن مصيره الأصلي.

الطعنة في الجنب

ثم تأتي تفصيلة أخرى في الرواية: طعنة الحربة في الجنب، وخروج الدم والماء.

قد تبدو هذه التفصيلة لأول وهلة تفصيلًا ثانويًا، لكنها تصبح مهمة عند محاولة إعادة بناء المشهد. فالجسد الذي كان على الصليب تعرض للطعن، وأصبحت هذه العلامة جزءًا من إثبات موته.

لكن إذا كان الموجود على الصليب هو الشبيه، فإن الطعنة لم تكن في جسد المسيح أصلًا.

وهكذا تتحول التفاصيل التي استُخدمت لاحقًا لإثبات موت المسيح إلى تفاصيل مرتبطة بالشخص الذي وقع عليه الشبه.

موت يهوذا والروايات المختلفة

ثم تأتي نهاية يهوذا.

توجد في العهد الجديد روايات مختلفة حول موته؛ ففي موضع يرتبط موته بالشنق، وفي موضع آخر يرد وصف لسقوطه وانشقاق بطنه وخروج أحشائه.

ولا يجري الجمع بين الروايتين بسهولة دون تفسير.

لكن ضمن فرضية الشبيه، تصبح نهاية يهوذا ذات أهمية خاصة. فالشخص الذي خان المسيح وساهم في القبض عليه هو نفسه الذي يمكن أن يكون قد انتهى على الصليب.

وبذلك تأخذ القصة شكلًا دائريًا: يهوذا سلّم المسيح، ثم صار هو الضحية التي وقع عليها الشبه.

ومن هنا يمكن فهم الربط الذي يضع يهوذا في موضع المصلوب.

الدفن والحراسة: الخوف من القبر

بعد الصلب يأتي الدفن ، يوضع الجسد في القبر.

ويغلق الحجر ، وتُطلب الحراسة.

وهذه الإجراءات تعكس خوفًا من حدوث شيء بعد الدفن. كانت هناك خشية من أن يأتي أتباع المسيح وينقلوا الجسد، ثم يقولوا إنه قام.

لكن إذا كان الجسد الموجود في القبر ليس جسد المسيح، فإن الحراسة لم تكن تحمي حقيقة موت المسيح، وإنما كانت تحمي الاعتقاد بأن الشخص الذي دُفن هو المسيح.

وهنا تصبح نقطة القبر الفارغ جزءًا أساسيًا من اللغز.

فالجسد ليس هناك.

والمسيح ليس فيه.

لكن الناس كانوا يعتقدون أن هذا هو قبر المسيح.

مريم والقبر الفارغ

عندما جاءت مريم إلى القبر، لم تجد المسيح.

وهذه اللحظة هي نقطة التحول في الرواية.

لكن الأهم أن مريم عندما رأت الشخص الموجود لم تتعرف إليه فورًا، بل ظنته البستاني.

هذه التفاصيل تحتاج إلى التوقف عندها.

مريم كانت تعرف المسيح، ورأته وعاشت معه.

إذا ظهر أمامها الشخص نفسه، فلماذا لم تتعرف إليه مباشرة؟

في التفسير اللاهوتي يمكن تقديم إجابات متعددة لهذه المسألة، لكن في قراءة النجاة والشبه يصبح الأمر أكثر مباشرة: المسيح كان حيًا، لكنه ظهر بعد الأحداث في ظروف جعلت مريم لا تعرفه من اللحظة الأولى.

ثم يأتي القول: «**لماذا تطلبين الحي بين الأموات؟**»

والعبارة نفسها لافتة: **الحي**.

إنها لا تقول ببساطة إن ميتًا عاد، بل تصف الشخص بأنه حي.

المسيح بعد الصليب: إنسان حي

بعد ذلك تظهر مشاهد أخرى أكثر أهمية.

فالمسيح يظهر لأتباعه.

يتحدث إليهم.

يجلس معهم.

ويأكل أمامهم.

بل تذكر الروايات أنه أكل السمك.

ويطلب منهم أن يلمسوه.

هذه التفاصيل تجعل الجسد الذي يظهر أمامهم جسدًا حقيقيًا.

ليس شبحًا.

ليس روحًا بلا جسد.

وليس مجرد صورة ذهنية.

بل شخص يأكل ويتكلم ويُلمس.

ومن هنا يمكن قراءة الظهورات باعتبارها لقاءات مع إنسان نجا من الموت، لا مع ميت عاد من عالم آخر.

وهذا يفسر أيضًا استمرار المسيح في التعليم بعد الأحداث؛ فهو لم يظهر لحظة واحدة ثم اختفى، بل بقي مع أتباعه وشرح لهم وأوصاهم وأكمل مهمته.

من القبر إلى الجبل

بعد ظهوره لأتباعه، تستمر الرواية في وصف حركته وتعليمه، ثم يأتي مشهد الارتفاع.

لا ينتهي الأمر بجثمان مدفون، وإنما ينتهي برفع المسيح.

وهذا ينسجم مع الصورة القرآنية التي تجعل نهايته:

النجاة من القتل والصلب، ثم الرفع.

فالمسيح لم يكن نهاية قصته قبر مغلق، وإنما رفعه الله إليه.

ومن هنا تصبح الرواية مختلفة جذريًا عن البناء اللاهوتي الذي سيجعل الصليب مركز الخلاص.

يعقوب: أخو المسيح وشاهد المرحلة الأولى

لكن قصة المسيحية لا تنتهي عند الصليب أو القبر. فهناك شخصية شديدة الأهمية ظلت موجودة بعد هذه الأحداث: يعقوب، أخو المسيح.

يعقوب ليس شخصية هامشية في تاريخ المسيحية الأولى. فقد أصبح من أبرز قادة جماعة المسيحيين في أورشليم، وكان قريبًا من مركز الحركة الأولى، وعاش في البيئة التي خرج منها المسيح وتلاميذه.

والأهمية الكبرى ليعقوب أنه لم يقدم أخاه باعتباره إلهًا متجسدًا.

ظل مرتبطًا بالبيئة اليهودية.

وظل محافظًا على جذوره الدينية.

وظل الاتجاه المرتبط بأورشليم أقرب إلى الالتزام بالشريعة من الاتجاه الذي انتشر بين الأمم.

وهذا يجعل شهادته التاريخية ذات أهمية خاصة في فهم المسيحية الأولى.

فلو كانت عقيدة ألوهية المسيح هي المعنى الواضح والمباشر الذي تركه المسيح لتلاميذه، فإن السؤال يصبح: لماذا لم يكن يعقوب، أخوه وأحد أبرز قادة الجماعة الأولى، هو صاحب الدعوة إلى عبادة أخيه؟

لماذا ظل داخل إطار التوحيد اليهودي؟

ولماذا أصبح الخلاف بين جماعة أورشليم والاتجاه البولسي شديدًا إلى هذا الحد؟

يعقوب وبولس: صراع على شكل المسيحية

كان الخلاف بين يعقوب وبولس يتجاوز التفاصيل الثانوية.

كان يتعلق بطبيعة الدين نفسه.

بولس كان يتجه بالمسيحية نحو الأمم، ويخفف الارتباط بالشريعة اليهودية.

أما جماعة أورشليم، المرتبطة بيعقوب، فكانت أكثر تمسكًا بالشريعة وبالهوية الدينية التي خرج منها المسيح.

ولهذا أصبح يعقوب يمثل اتجاهًا مختلفًا عن الاتجاه الذي سينتصر لاحقًا.

كان المسيح عند جماعته هو المسيح المرسل من الله، وليس إلهًا آخر بجوار الله.

وكانت العلاقة بالله تقوم على التوحيد.

وكانت الشريعة جزءًا من البيئة الدينية التي لم يروا أن المسيح جاء لإلغائها.

وهكذا لم يكن الصراع بين يعقوب وبولس مجرد اختلاف في أسلوب الدعوة، وإنما كان اختلافًا حول مستقبل الحركة نفسها.

أي صورة ستبقى؟

هل تبقى حركة يهودية تؤمن بالمسيح وتتمسك بالشريعة؟

أم تتحول إلى دين عالمي مفتوح للأمم، منفصل عن معظم الأحكام اليهودية؟

التاريخ أخبرنا أي الاتجاهين أصبح أقوى.

لكن السؤال الذي يبقى هو:**هل انتصار اتجاه معين يعني بالضرورة أنه كان هو الاتجاه الأصلي؟**

يعقوب في مواجهة المؤسسة الدينية

لم يكن يعقوب في صدام مع بولس وحده.

كان أيضًا جزءًا من جماعة تقف في مواجهة المؤسسة الدينية اليهودية التي عارضت أتباع المسيح.

فالمسيح نفسه كان قد دخل في صدام مع بعض الكهنة والمرابين ورجال الدين بسبب ما رآه من تحريف واستغلال للدين، واستمر أتباعه في أورشليم في حمل هذا الخط الإصلاحي.

وبذلك وجد يعقوب نفسه في موقف بالغ الحساسية:

هو أخو المسيح.

وقائد جماعته.

ومتمسك بجذورها.

ومختلف مع الاتجاه البولسي.

وفي الوقت نفسه يواجه المؤسسة الدينية التي لم تكن تقبل استمرار جماعة المسيح داخل أورشليم.

وهذا الصراع انتهى بمقتل يعقوب.

قتل يعقوب: إسكات أحد شهود المسيحية الأولى

تذكر الروايات التاريخية القديمة، ومنها رواية يوسيفوس، أن يعقوب قُتل في أورشليم بعد أن أُحضر أمام السلطة الدينية، وأن قتله ارتبط برئيس الكهنة حنان بن حنان في فترة غياب الوالي الروماني.

ومقتل يعقوب لم يكن مجرد حادثة شخصية.

كان يعني فقدان أحد أهم رموز الجيل الأول.

فقد قُتل الرجل الذي كان أخًا للمسيح وقائدًا للجماعة الموجودة في المكان الذي بدأت منه الدعوة.

ومع موته، ومع تراجع جماعة أورشليم، أصبحت المساحة أكبر أمام التيارات المسيحية التي توسعت بين الأمم.

وهنا يبدأ ميزان التاريخ في التغير.

ماذا حدث للمسيحيين الموحدين؟

لم تكن الجماعة المسيحية الأولى واحدة في كل شيء.

كانت هناك جماعات ظلت أقرب إلى التوحيد اليهودي، وارتبطت لاحقًا بأسماء مثل الناصريين والإبيونيين، وكانت ترى المسيح رسولًا ومسيحًا ونبيًا من عند الله، لا إلهًا متجسدًا.

ومع مرور الوقت تعرضت هذه الجماعات للتراجع والتهميش، ثم اختفت أسماؤها تدريجيًا من مركز المسيحية الكبرى.

وهربت بعض الجماعات إلى مناطق مختلفة من الشرق والجنوب، وارتبطت تقاليد مسيحية مبكرة بمصر والشام ومناطق أخرى، ثم ظهرت آثار الجماعات المسيحية المختلفة في مناطق متعددة.

لكن الاتجاه الذي توسع بين الأمم كان أكثر قدرة على الاستمرار.

وكانت لغته اليونانية أكثر انتشارًا.

وكان أقل ارتباطًا بالهوية اليهودية.

وكان أكثر قدرة على الدخول في المجتمع الروماني.

وبذلك لم يعد مستقبل المسيحية في يد الجماعة الأولى وحدها.

من أورشليم إلى العالم الروماني

مع مرور الوقت، تحولت المسيحية من حركة صغيرة خرجت من فلسطين إلى شبكة واسعة من الجماعات المنتشرة في العالم اليوناني والروماني.

وهنا حدث التحول الأكبر.

لم تعد اللغة الآرامية هي اللغة الوحيدة التي يمكن من خلالها فهم الرسالة.

ولم تعد البيئة اليهودية هي البيئة الأساسية.

وأصبح المسيحي الجديد في مدينة يونانية أو رومانية يتلقى المسيحية من خلال نصوص يونانية وتفسيرات جديدة وأسئلة فلسفية جديدة.

ثم بدأت المصطلحات تتغير.

وأصبح الحديث عن طبيعة المسيح وعلاقته بالله والروح جزءًا من الجدل الديني.

ثم جاءت القرون اللاحقة بالمجامع والصراعات اللاهوتية التي حاولت تحديد العقيدة الرسمية.

وهكذا أصبحت المسيحية التي انتشرت في الإمبراطورية مختلفة في بنيتها عن الحركة الأولى التي عرفها المسيح وتلاميذه في أورشليم.

السؤال الذي بقي بعد موت يعقوب

إذا كان يعقوب أخو المسيح، وقائد الجماعة الأولى، قد ظل يهوديًا موحدًا ولم يقل إن أخاه إله، وإذا كانت جماعة أورشليم نفسها متمسكة بجذور المسيحية الأولى، فلماذا أصبحت المسيحية اللاحقة تقوم على عقيدة مختلفة؟

وإذا كان بولس قد أصبح أحد أهم صانعي المسيحية التي انتشرت بين الأمم، فلماذا تراجعت جماعة يعقوب؟

وإذا كان الاتجاه الأول هو الأقرب زمنيًا إلى المسيح، فلماذا لم ينتصر؟

هل كان السبب دينيًا فقط؟

أم أن انتشار المسيحية بين الأمم غيّر بنيتها؟

وهل ساعد ضعف جماعة أورشليم ومقتل يعقوب على انتقال مركز الثقل إلى الاتجاه الآخر؟

هذه الأسئلة تقود إلى المرحلة التالية من القصة، حيث لم يعد الأمر متعلقًا بما حدث للمسيح وحده، بل بما حدث للمسيحية بعد المسيح.

بين المسيح والمسيحية

هناك فارق بين الرجل والرسالة التي خرجت باسمه، وبين المؤسسة الدينية التي ظهرت بعده.

المسيح عاش ومات في بيئة يهودية.

تلاميذه الأوائل ظهروا في أورشليم.

يعقوب أخوه قاد الجماعة الأولى.

وكان الخلاف مع بولس حاضرًا.

ثم مات يعقوب.

وتراجعت الجماعات المسيحية اليهودية.

وتوسعت المسيحية بين الأمم.

ثم دخلت في العالم اليوناني والروماني.

وبدأت اللغة تتغير ، ثم تغيرت المفاهيم.

ثم ظهرت الصياغات اللاهوتية.

ثم أصبح الصليب والفداء قلب العقيدة.

وهكذا لم يعد السؤال فقط: **ماذا حدث في ليلة القبض؟**

بل أصبح: **ماذا حدث للمسيحية نفسها بعد تلك الليلة؟**

ومن هنا يبدأ الفصل التالي من القصة: كيف تحولت رواية الصليب إلى عقيدة الفداء، وكيف أصبح موت المسيح المفترض هو محور الخلاص، وكيف انتقلت المسيحية من جماعة أورشليم إلى دين عالمي ثم إلى مؤسسة مرتبطة بالإمبراطورية، وماذا بقي من رسالة المسيح الأولى بعد كل هذه التحولات؟

وهنا يبقى السؤال مفتوحًا:

هل كانت المسيحية التي عرفها العالم بعد قرون هي المسيحية التي عرفها المسيح وتلاميذه؟

بعد مقتل يعقوب وتراجع الجماعة الأولى في أورشليم، لم تعد المسيحية تسير في المسار نفسه الذي بدأت منه. انتقل مركز الثقل تدريجيًا من البيئة اليهودية التي خرج منها المسيح إلى العالم اليوناني والروماني، ومع هذا الانتقال لم تتغير لغة المسيحية فقط، بل تغيرت الأسئلة التي تُطرح عليها، ثم تغيرت الإجابات التي تقدمها.

كانت الجماعة الأولى تسأل: من هو المسيح؟ وما رسالته؟ وكيف يعيش أتباعه في طاعة الله؟

أما المسيحية التي اتسعت داخل العالم اليوناني والروماني، فأصبحت تسأل بصورة متزايدة: ما طبيعة المسيح؟ كيف تجتمع إنسانيته وألوهيته؟ ما علاقته بالآب؟ وما طبيعة الروح؟ وكيف يمكن أن يكون الإله واحدًا مع وجود الآب والابن والروح؟

وهنا انتقلت المسيحية من لغة الرسالة إلى لغة الميتافيزيقا.

من النبي إلى القضية الفلسفية

في البيئة الأولى كان المسيح يُفهم داخل إطار الأنبياء والرسل والكتب السابقة. أما في البيئة اليونانية، فقد أصبحت مفاهيم مثل الجوهر والطبيعة والكلمة والوجود أدوات أساسية في النقاش.

لم يعد الخلاف فقط حول ما قاله المسيح، بل أصبح حول «من يكون» في ذاته.

وهذه النقلة كانت ضخمة.

فالرسول يُعرف برسالته، أما الإله فيحتاج إلى تعريف فلسفي لطبيعته.

والنبي يدعو الناس إلى عبادة الله، أما العقيدة اللاهوتية فتحتاج إلى تحديد العلاقة بين الأشخاص والأقانيم والجوهر.

وهكذا أصبحت المسيحية مطالبة بالإجابة عن أسئلة لم تكن مطروحة بهذه الصياغة في البيئة التي عاش فيها المسيح.

الكلمة واللوغوس

كان من أهم المصطلحات التي ساعدت على بناء اللاهوت المسيحي المتأخر مصطلح «اللوغوس».

تبدأ إنجيل يوحنا بعبارة شديدة الأهمية: «في البدء كان الكلمة».

والكلمة اليونانية المستخدمة هي Logos.

وهذه الكلمة كانت محملة بتاريخ فلسفي طويل في العالم اليوناني، وتحمل معاني متعددة تتعلق بالكلمة والعقل والمبدأ والنظام.

وعندما أصبح المسيح مرتبطًا باللوغوس، لم يعد النقاش مجرد حديث عن نبي أرسله الله، بل أصبح بالإمكان بناء تصور فلسفي عن وجود المسيح قبل ظهوره في العالم.

وهنا أصبح النص مجالًا لإعادة البناء اللاهوتي.

فالمسيح لم يعد فقط عيسى الناصري الذي عاش بين الناس، بل أصبح «الكلمة» الأزلي في التصور المسيحي اللاحق.

ومن هنا اتسعت المسافة بين الصورة التاريخية للمسيح وبين الصورة اللاهوتية التي ستصبح لاحقًا أساس العقيدة.

لماذا احتاجت المسيحية إلى تحديد العقيدة؟

كلما توسعت المسيحية، ظهرت جماعات متعددة وتفسيرات مختلفة.

بعضهم رأى المسيح إنسانًا مختارًا من الله.

وبعضهم رآه نبيًا ومسيحًا.

وبعضهم رفعه إلى مرتبة إلهية.

وبعضهم قال إنه إله كامل وإنسان كامل.

وبعضهم اختلف حول علاقته بالآب.

وبعضهم اختلف حول الروح.

وبعضهم رأى أن المسيح سابق للخلق، بينما رأى آخرون أن وجوده مرتبط بميلاده.

وهكذا أصبحت المسيحية أمام مشكلة لا يمكن حلها بالوعظ وحده.

كان لا بد من صياغة عقيدة رسمية.

وكان لا بد من تحديد المقبول والمرفوض.

ومن هنا جاءت مرحلة المجامع.

قسطنطين: عندما دخل الإمبراطور إلى قلب الخلاف

في القرن الرابع الميلادي حدث تحول هائل.

دخل الإمبراطور قسطنطين في المشهد المسيحي.

لم يعد الأمر يتعلق بجماعات دينية صغيرة تتجادل حول العقيدة، بل أصبح الخلاف اللاهوتي مرتبطًا باستقرار الإمبراطورية نفسها.

كان قسطنطين يدرك أن الانقسام الديني يمكن أن يتحول إلى انقسام سياسي.

ولهذا دعا إلى مجمع نيقية سنة 325م.

لم يكن هذا المجمع مجرد اجتماع ديني عادي.

كان اجتماعًا لتحديد موقف عقائدي يمكن أن تتبناه المسيحية الرسمية.

وأصبح السؤال المركزي هو علاقة الابن بالآب.

هل الابن مخلوق؟

هل هو أقل من الآب؟

هل هو من جنس آخر؟

أم أنه من الجوهر نفسه؟

وفي النهاية غلب الاتجاه الذي قال إن الابن «مساوٍ للآب في الجوهر».

وهكذا أصبحت كلمة فلسفية مثل «الجوهر» جزءًا من العقيدة الرسمية.

مجمع نيقية: لحظة فاصلة

أهمية نيقية لا تكمن فقط في القرار الذي خرج منه، بل في طبيعة المرحلة التي يمثلها.

فالعقيدة لم تعد تنتقل فقط من معلم إلى تلميذ، بل أصبحت تُصاغ في مجلس واسع، ثم تُفرض باعتبارها معيار الإيمان الصحيح.

من هنا أصبح من الممكن أن يُتهم شخص بالهرطقة ليس لأنه رفض المسيح، وإنما لأنه فهم طبيعة المسيح بطريقة تختلف عن الصيغة التي اعتمدها المجمع.

وبذلك تحولت المسألة من اختلاف ديني إلى قضية سلطة.

من يملك حق تعريف الإيمان؟ ومن يملك حق تحديد العقيدة؟

ومن يملك حق إعلان أن هذا التفسير مسيحي، وأن ذاك ليس مسيحيًا؟

كانت هذه بداية مرحلة جديدة.

آريوس: هل الابن هو الله نفسه؟

كان آريوس من أبرز من رفضوا مساواة الابن بالآب على الصورة التي أقرها مجمع نيقية.

كان يرى أن الله واحد أزلي، وأن الابن ليس مساويًا للآب في الجوهر بالطريقة التي قال بها خصومه.

ولهذا تحول الخلاف إلى صراع واسع.

ولم يكن الصراع فكريًا فقط.

تعاقب الأباطرة.

وتغيرت التحالفات.

وتغيرت المواقف الرسمية.

وارتفع فريق وسقط آخر.

وأُبعد رجال دين.

وعاد آخرون.

وهكذا أصبح اللاهوت مرتبطًا بصورة واضحة بالسلطة السياسية.

العقيدة والسلطة

إذا أصبحت الإمبراطورية تتدخل في الخلاف حول طبيعة المسيح، فإن السؤال لم يعد دينيًا فقط.

من يملك القوة يستطيع حماية عقيدة معينة. ومن يملك المؤسسة يستطيع عزل خصومه.

ومن يملك السلطة يستطيع تحويل رأي لاهوتي إلى عقيدة رسمية.

وهكذا لم تعد المسيحية مجرد حركة روحية.

بدأت تتحول إلى مؤسسة.

وكلما أصبحت المؤسسة أقوى، أصبح الخلاف مع الخارج والداخل أكثر حدة.

من المخالف إلى الهرطوقي

في المراحل الأولى كان الاختلاف بين المسيحيين واسعًا.

لكن بعد تشكل المؤسسات الكبرى، أصبح الاختلاف أخطر.

لم يعد المخالف مجرد صاحب رأي آخر.

بل أصبح «هرطوقيًا».

ثم أصبحت بعض الجماعات عرضة للإقصاء.

ثم الملاحقة.

ثم مصادرة الكتب.

ثم إغلاق أماكن العبادة.

وأحيانًا العقوبات القاسية.

وهكذا حدثت المفارقة:

حركة بدأت وهي تواجه اضطهاد الإمبراطورية، انتهت بعد قرون وهي تمتلك سلطة قادرة على ممارسة الإقصاء ضد المخالفين.

من الاضطهاد إلى الامتياز

المسيحية في بدايتها كانت دين جماعات صغيرة تتعرض للضغط.

ثم أصبحت دينًا معترفًا به.

ثم أصبحت دينًا مفضلًا.

ثم أصبحت مرتبطة بالدولة.

وفي نهاية القرن الرابع، في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، أصبحت المسيحية النيقاوية ذات مكانة رسمية مركزية داخل الإمبراطورية الرومانية.

وهنا اكتمل تحول بالغ الأهمية:

من دين كان خارج السلطة إلى دين مرتبط بالسلطة.

ومن جماعات مستقلة إلى مؤسسة لها رجال دين وممتلكات ومراكز نفوذ.

ومن حركة متعددة الاتجاهات إلى منظومة تسعى إلى توحيد العقيدة.

ماذا حدث للرموز القديمة؟

مع توسع المسيحية داخل العالم الروماني، لم تختفِ الثقافة القديمة فجأة.

بل حدث تداخل طويل بين القديم والجديد.

دخلت بعض الأشكال المعمارية القديمة إلى الكنائس.

وتغيرت بعض العادات والمناسبات.

واستُخدمت رموز كانت مألوفة في العالم القديم ضمن سياقات مسيحية جديدة.

وهذا لا يعني أن كل طقس مسيحي أصله وثني، ولا أن كل رمز مسيحي مأخوذ مباشرة من عبادة رومانية؛ لكن انتقال المسيحية إلى عالم متعدد الأديان جعل عملية التداخل الثقافي أمرًا طبيعيًا.

وهنا يجب التفريق بين أمرين:

المسيحية كرسالة دينية.

والمسيحية كمؤسسة تاريخية نشأت داخل الحضارة الرومانية.

فالرسالة يمكن أن تكون شيئًا، بينما المؤسسة التي تحمل اسمها يمكن أن تتغير وفق البيئة السياسية والثقافية التي تعيش فيها.

25 ديسمبر: بين التاريخ والرمز

أصبح 25 ديسمبر مرتبطًا في المسيحية الغربية بعيد الميلاد، رغم أن الأناجيل لا تعطي تاريخًا صريحًا لميلاد المسيح.

وفي العالم الروماني كانت نهاية ديسمبر فترة ذات أهمية دينية واحتفالية، وارتبطت فيها أعياد ومناسبات متعددة بالشمس والشتاء والانقلاب الشتوي.

ولهذا أصبح اختيار هذا التاريخ موضع نقاش تاريخي طويل.

لكن المسألة ليست ببساطة أن الكنيسة «اخترعت» عيد الميلاد في يوم وثني واحد محدد؛ فالتاريخ أكثر تعقيدًا من ذلك، وتطورت التقاليد عبر مراحل مختلفة.

ومع ذلك، يبقى واضحًا أن المسيحية عندما أصبحت دينًا واسع الانتشار لم تعش في فراغ، بل دخلت في حوار وتفاعل وامتزاج مع البيئة الرومانية.

الإفخارستيا والطقوس

كذلك تطورت الطقوس المسيحية عبر القرون.

الخبز والخمر أصبحا في صلب العبادة المسيحية من خلال الإفخارستيا.

وتطورت الملابس الكهنوتية ، والشموع ، والبخور ، والكنائس.

والصور ، والرموز ، والتراتيل ،والاحتفالات السنوية.

لم تظهر كل هذه العناصر في لحظة واحدة، ولم تكن جميعها نسخة مباشرة من طقس وثني محدد، بل تطورت تدريجيًا مع تطور المسيحية المؤسسية.

لكن النتيجة النهائية كانت واضحة:

المسيحية التي عرفها العالم في العصور المتأخرة أصبحت ذات مظهر ديني مختلف تمامًا عن جماعة بسيطة تتحرك في فلسطين في القرن الأول.

الصور والتماثيل

من القضايا التي أثارت جدلًا طويلًا داخل المسيحية مسألة الصور والتماثيل.

هل يجوز تصوير المسيح؟

هل يجوز تصوير مريم؟

هل يجوز تكريم القديسين؟

هل الصورة مجرد وسيلة تعليمية؟

أم أنها يمكن أن تتحول إلى موضوع للعبادة؟

ظهرت خلافات ضخمة حول هذه المسألة، حتى إن الإمبراطورية نفسها دخلت في صراع حول الصور.

ثم انتصرت في النهاية ممارسة تكريم الأيقونات في أجزاء واسعة من المسيحية.

وهكذا دخلت المسيحية عالمًا بصريًا غنيًا بالصور والرموز، بينما كانت البيئة اليهودية التي خرج منها المسيح أكثر حساسية تجاه صناعة الصور الدينية.

مريم: من أم المسيح إلى مركز لاهوتي

تطورت أيضًا مكانة مريم عبر القرون.

في البداية كانت أم المسيح ،ثم أصبحت موضوعًا واسعًا للتكريم.

ثم ظهرت صيغ عقائدية ولاهوتية متقدمة حول طبيعتها ومكانتها.

وفي القرن الخامس ظهر جدل كبير حول لقب «والدة الإله» Theotokos.

وهذا الجدل لم يكن متعلقًا بمريم وحدها، بل كان في جوهره متعلقًا بسؤال:

إذا كان المسيح إلهًا، فكيف نصف المرأة التي ولدته؟

وهكذا أصبح حتى وصف مريم جزءًا من الصراع حول طبيعة المسيح.

المجامع لا تنتهي

بعد نيقية لم ينته الخلاف.

بل جاءت مجامع أخرى.

مجمع القسطنطينية.

مجمع أفسس.

مجمع خلقيدونية.

وفي كل مرحلة كانت الأسئلة تتطور:

هل المسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان؟

هل هو شخص واحد؟

كيف تجتمع الألوهية والإنسانية؟

هل الروح القدس إله؟

هل الروح منبثق من الآب فقط أم من الآب والابن؟

هذه الأسئلة أصبحت أساسًا لفرق مسيحية كبرى.

ومن هنا ظهرت انقسامات تاريخية عميقة بين الكنائس.

المسيحية التي انقسمت على طبيعة المسيح

كان الخلاف حول طبيعة المسيح من أكثر الخلافات تأثيرًا في التاريخ المسيحي.

بعض الكنائس رفضت صياغات خلقيدونية.

وتمسكت الكنائس المشرقية القديمة بتصورات مختلفة حول طبيعة المسيح.

ثم استمرت الانقسامات بين الشرق والغرب.

ثم جاء الانقسام الكبير بين الكاثوليكية والأرثوذكسية.

ثم ظهرت البروتستانتية بعد قرون.

كل ذلك يطرح سؤالًا جوهريًا:

إذا كانت العقيدة الأساسية عن المسيح احتاجت إلى قرون من المجالس والجدالات والقرارات والانقسامات حتى تستقر، فكيف كانت الجماعة الأولى تفهم المسيح قبل أن تظهر هذه الصياغات الفلسفية؟

الكتاب نفسه

هناك جانب آخر لا يمكن تجاهله: نصوص العهد الجديد نفسها لم تصل إلينا في صورة كتاب واحد كتبه المسيح أو كتبه تلاميذه مجتمعين في حياته.

الأناجيل الأربعة ظهرت بعد زمن المسيح، وتوجد بينها اختلافات في بعض التفاصيل والترتيب والصياغة.

ثم جرى تداول عدد كبير من الكتابات المسيحية.

أناجيل ، رسائل ، رؤى ، أعمال ، ونصوص أخرى.

ومع مرور الوقت تشكلت مجموعة الكتب التي أصبحت تعرف بالعهد الجديد.

وبذلك لم يكن «الكتاب المقدس» في صورته المسيحية النهائية موجودًا منذ اللحظة الأولى باعتباره مجلدًا واحدًا مكتملًا.

بل تشكلت مجموعة النصوص عبر تاريخ طويل من التداول والاختيار والاعتماد والاستبعاد.

الأناجيل الأربعة

أصبحت الأناجيل الأربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا، أساس الرواية الإنجيلية في المسيحية التقليدية.

لكنها ليست متطابقة.

لكل إنجيل أسلوبه وبنيته واهتماماته.

مرقس يختلف عن متى.

ولوقا يختلف عن متى.

ويوحنا يختلف بصورة أكبر في البناء واللغة واللاهوت.

وهذا الاختلاف ليس مجرد مشكلة بالنسبة للمؤمن؛ بل هو مادة أساسية لفهم تاريخ تشكل المسيحية.

فكلما اختلفت الروايات، أصبح الباحث أمام مهمة إعادة بناء الأحداث من خلال نصوص متعددة، لا أمام شهادة واحدة مكتوبة من شخص واحد في لحظة واحدة.

بولس والرسائل

أما بولس، فأصبحت رسائله من أقدم النصوص المسيحية التي وصلت إلينا.

وتحتل رسائله مكانة ضخمة في الفكر المسيحي.

ومن خلالها أصبحت مفاهيم مثل الخلاص بالإيمان، والفداء، والموت والقيامة، وعلاقة الإنسان بالشريعة، مركزية في المسيحية المتأخرة.

ولهذا فإن فهم المسيحية التاريخية لا يمكن أن يتجاوز بولس.

فحتى لو اختلف الناس حول شخصه وتأويله، فإن تأثيره في تشكيل المسيحية التي عرفها العالم لاحقًا لا يمكن تجاهله.

من جماعة إلى كنيسة

في البداية كانت الجماعة تعيش كحركة دينية.

ثم أصبحت كنائس محلية.

ثم ظهرت الأسقفيات.

ثم البطريركيات.

ثم أصبحت هناك مراكز كبرى في روما والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وأورشليم.

وأصبح للأسقف سلطة.

وللكاهن وظيفة.

وللكنيسة إدارة.

ولها ممتلكات.

ولها قوانين.

ولها سلطة على أتباعها.

وهكذا اكتملت عملية التحول من حركة دينية صغيرة إلى مؤسسة عالمية.

روما والمسيحية: التحول الكامل

عندما نعود إلى الإمبراطورية الرومانية، تظهر المفارقة بوضوح.

المسيحية الأولى كانت في مواجهة عالم وثني قوي.

لكن بعد قرون أصبحت المسيحية جزءًا أساسيًا من الحضارة الرومانية.

ثم حملت المؤسسة الكنسية كثيرًا من عناصر التنظيم الإمبراطوري.

وأصبحت روما نفسها مركزًا دينيًا بالغ القوة.

وهكذا لم تعد المسيحية تواجه الإمبراطورية.

بل أصبحت جزءًا من النظام الذي سيعيد تشكيل أوروبا.

ثم انتقلت المسيحية الأوروبية مع الاستعمار والهجرة والتوسع السياسي إلى مناطق أخرى من العالم.

وبمرور القرون أصبحت إحدى أكثر القوى الدينية والثقافية تأثيرًا في التاريخ.

ماذا بقي من المسيح؟

وهنا نعود إلى السؤال الأول.

المسيح الذي تصفه الروايات كان يهوديًا.

كان يصلي لله.

وكان يتوجه إليه.

وكان يدعو الناس إلى طاعته.

وكان يتحرك داخل شريعة موسى.

وكان يواجه رجال الدين الذين رأى أنهم أساؤوا استخدام الدين.

وكان يدعو إلى التوبة والأخلاق والرحمة.

ثم جاءت المسيحية التاريخية لتضع في مركزها قضايا أخرى:

ألوهية المسيح ، الفداء ، الخطيئة الأصلية ، الثالوث.

الجوهر والأقنوم ، الصلب والقيامة ، الكهنوت.

الأسرار ، والكنيسة بوصفها مؤسسة ذات سلطة.

وهنا يظهر الفارق الذي لا يمكن تجاهله بين المسيح بوصفه شخصية تاريخية ورسالة دينية، وبين المسيحية بوصفها منظومة لاهوتية ومؤسسة تاريخية تطورت عبر قرون.

هل التغيير حدث في لحظة واحدة؟

لم يكن التحول بالضرورة مؤامرة واحدة اجتمع فيها أشخاص ثم قرروا تغيير كل شيء في ليلة واحدة.

التاريخ أكثر تعقيدًا.

التغيير يحدث أحيانًا بالتراكم.

ترجمة ، ثم تفسير ،ثم خلاف ، ثم مدرسة. ثم مؤسسة ، ثم مجمع ، ثم قانون ديني

ثم سلطة سياسية ، ثم يصبح التفسير عقيدة ، ثم تصبح العقيدة هوية. ، ثم يصبح رفضها خروجًا عن الدين.

وهكذا يمكن أن يتغير الدين تدريجيًا دون أن يشعر كل جيل بأنه يغير شيئًا جذريًا.

كل جيل يرث ما قبله ، ثم يضيف إليه.

ثم يأتي جيل آخر فيضيف شيئًا جديدًا.

وبعد عدة قرون تصبح النتيجة بعيدة جدًا عن نقطة البداية.

وهنا تكمن القضية

إذا كان المسيح لم يؤسس مؤسسة إمبراطورية، ولم يكتب كتابًا بيده، ولم يترك وراءه عقيدة فلسفية مكتملة عن الثالوث والجوهر والأقانيم، فإن السؤال يصبح:

من الذي صاغ هذه العقيدة؟ وكيف أصبحت ملزمة؟

ومن الذي امتلك حق تحديد المسيحية الصحيحة؟

وهل كان ذلك امتدادًا مباشرًا لرسالة المسيح؟

أم تطورًا تاريخيًا حدث بعده؟

ثم يأتي السؤال الأهم: إذا كان يعقوب أخو المسيح، قائد الجماعة الأولى، قد بقي داخل الإطار اليهودي التوحيدي، وإذا كان أتباع المسيح الأوائل قد اختلفوا مع بولس، وإذا ظهرت خلافات واسعة حول طبيعة المسيح استمرت قرونًا، فهل يمكن اختزال كل ذلك في عبارة واحدة تقول إن المسيح أعلن نفسه إلهًا وطلب من الناس عبادته؟

المسيح في القرآن

هنا تأتي الرواية القرآنية لتقدم صورة مختلفة تمامًا.

المسيح عيسى ابن مريم ، رسول من الله.

وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه.

ويقول القرآن على لسان المسيح: «إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم».

ويقول:«لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله».

ويضع حدًا واضحًا أمام تأليه المسيح: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم».

ثم يرفض صيغة التثليث: «ولا تقولوا ثلاثة».

ويعيد المسيح إلى موضعه الذي يراه القرآن موضع العبد والرسول والمسيح المرسل من الله.

نهاية الصليب في الرواية القرآنية

أما حادثة الصلب، فيقدم القرآن فيها حكمًا مختلفًا:

«وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم».

ثم يقول: «بل رفعه الله إليه».

وهنا تتصل بداية القصة بنهايتها.

المسيح لم يكن إلهًا يحتاج إلى أن يموت ليغفر الله للناس.

ولم يكن الخلاص قائمًا على دم إله.

ولم تكن الرسالة تحتاج إلى تحويل النبي إلى معبود.

بل كان المسيح عبدًا لله ورسولًا إليه.

والله هو المعبود.

الوعد بالنبي بعد المسيح

ويبقى عنصر آخر في القصة، وهو ما ارتبط بحديث المسيح عن القادم بعده.

تنسب الأناجيل إلى المسيح حديثًا عن «المعزي» أو «البارقليط» في إنجيل يوحنا.

والنص اليوناني الموجود هو Parakletos، وقد فُسر تقليديًا بالمعزي أو المؤيد أو المدافع.

أما القراءة الإسلامية فتربط هذا الموضع بالبشارة بالنبي الذي يأتي بعد المسيح.

وترى صلة بينه وبين اسم «أحمد».

وهذه المسألة تحتاج إلى دراسة مستقلة للنصوص اليونانية والسريانية والعربية، وللتقاليد المبكرة حول معنى الكلمة، وهي من أهم نقاط الخلاف بين القراءة المسيحية والقراءة الإسلامية للنصوص الإنجيلية.

وقد تناولنا هذه المسألة في مقال مستقل بعنوان:

«النبي محمد في التوراة والإنجيل»

السؤال الأخير

بعد كل هذه المراحل، لا يعود السؤال:

هل توجد مسيحية؟

فالمسيحية موجودة منذ قرون.

ولا يصبح السؤال:

هل يؤمن المسيحيون بالمسيح؟

فهم يؤمنون به.

السؤال الحقيقي أعمق:

أي مسيح نتبع؟

المسيح الذي عاش في فلسطين؟

أم الصورة اللاهوتية التي تشكلت بعده؟

المسيح الذي كان يدعو إلى الله؟

أم المسيح الذي أصبح موضوعًا للعبادة؟

المسيح الذي عاش داخل شريعة قومه؟

أم المسيح الذي أصبحت شريعته ملغاة في معظم المسيحية؟

المسيح الذي قال إن الله ربه ورب الناس؟

أم المسيح الذي صاغت المجامع علاقته بالله في مصطلحات الجوهر والأقنوم؟

وإذا كان المسيح نفسه عبدًا لله ورسولًا منه، وإذا لم يكن هو الذي قُتل وصلب، وإذا كان الله قد رفعه إليه، فماذا بقي من أساس العقيدة التي جعلت الصليب محور الدين؟

ليست القضية كراهية المسيحية

القضية ليست مهاجمة أتباع المسيح ، ولا إنكار مكانة المسيح.

ولا إنكار أن في التراث المسيحي نصوصًا أخلاقية عظيمة تدعو إلى الرحمة والمحبة والتواضع.

بل القضية هي البحث عن الأصل.

كيف بدأ الأمر؟ ، ومن كان المسيح؟ ماذا قال؟ ، ماذا فعل؟ كيف فهمه أقرب أتباعه؟

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ ومن الذي نقل كلامه؟ ومن الذي ترجمه؟

ومن الذي فسّره؟ ومن الذي حوله إلى عقيدة؟ ومن الذي جعل العقيدة جزءًا من مؤسسة؟

ومن الذي جعل المؤسسة جزءًا من دولة وإمبراطورية؟

هذه هي الأسئلة التي تقود إلى أصل القضية.

الخاتمة: العودة إلى المسيح

في نهاية هذه الرحلة الطويلة، تظهر الصورة في اتجاهين متباعدين.

اتجاه يرى المسيح إلهًا متجسدًا، مات على الصليب فداءً للبشر، ثم قام من الموت، وأصبح الإيمان به أساس الخلاص.

واتجاه آخر يرى المسيح عبدًا لله ورسولًا منه، مسيحًا مولودًا من مريم، مؤيدًا بالوحي، داعيًا إلى عبادة الله وحده، لم يطلب من الناس أن يعبدوه، ولم يلغِ أصل التوحيد، ولم يجعل نفسه إلهًا.

وبين الصورتين توجد قرون من التاريخ.

قرون من الترجمة ، والتفسير ، والجدال. والمجامع ، والانقسامات. والسلطة ، والإمبراطورية.

ولهذا فإن العودة إلى المسيح لا تعني العودة إلى مؤسسة تشكلت بعده فحسب

وإنما تعني العودة إلى السؤال الأول:

ماذا قال المسيح عن نفسه؟ وماذا قال عن الله؟ وماذا طلب من الناس؟

إن كان قد قال: إن الله ربي وربكم فاعبدوه، فهذه ليست لغة إله يطلب عبادة نفسه، بل لغة عبد ورسول يدعو الناس إلى عبادة ربه.

وإن كان قد قال: «ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمل»، فهذه ليست لغة مؤسس دين يلغي شريعة موسى.

وإن كان قد صلى إلى الله وسجد له وطلب منه النجاة، فهذه صورة عبد متوجه إلى ربه.

وإن كان الله قد قال إنه لم يُقتل ولم يُصلب وإنما شُبّه لهم، فإن الصليب لا يعود نهاية المسيح، بل يصبح جزءًا من أعقد الأحداث التي أحاطت بقصته.

ومن هنا يصبح البحث عن المسيحية الأولى بحثًا عن المسيح نفسه، لا عن الصورة التي تشكلت حوله بعد قرون.

ويبقى السؤال:

هل نريد أن نعرف المسيح كما كان، أم كما أصبح في العقيدة التي تشكلت باسمه؟

فالعودة إلى المسيح تبدأ من العودة إلى الله.

لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

المسيح عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم.

كتيب

كريم عشماوي

مفكر وباحث حر، مؤلف كتب: أسرار المحراب، مَثَلُ نوره ١، مثل نوره ٢، قصة تروم المسيحية، محمديم

هذا الكتيب مقال من كتاب

«قصة تروم المسيحية»

احصل على الكتاب من كتوباتي
https://www.ktobati.com/author/كريم-عشماوي

Lulu
https://www.lulu.com/shop/karim-ashmawy/قصة-تروم-المسيحية/ebook/product-dyqq5n8.html

Gumroad
https://karimashmawy.gumroad.com/

جميع المقالات على زينودو
https://zenodo.org/communities/kareem-ashmawy

ORCID
https://orcid.org/0009-0001-8776-4091